٦ ــ محمد الأمين وولده

لما ولَّى «الرشيد» عهده لولده «محمد الأمين» قال «سَلْم الخاسر» في ذلك العهد:

قل للمنازل بالكثيب الأعفر ... أُسْقِيتِ غادية السحاب الممطرِ
قد بايع الثقلان مهديَّ الهدى ... لمحمد بن زبيدة ابنة جعفرِ
قد وفق الله الخليفة إذ بنى ... بيت الخلافة للهجان الأزهرِ
فهو الخليفة عن أبيه وجَدِّه ... شهدا عليه بمنظرٍ وبمخبرِ

فَحَشَتْ «زبيدة» فاه جوهراً، باعه بعشرين ألف دينار، فمن كان «محمد الأمين» هذا؟

إنه: «محمد أبو عبد الله بن الرشيد»؛ هارون، أبو جعفر بن المهدي محمد بن المنصور، عبد الله بن العباس وأمه «زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور».

قال «ابن عبد ربه» في «العقد الفريد»: بويع «أبو عبد الله محمد الأمين» في جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، وقتل يوم الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وكان مولده بالرُّصَافة، سنة إحدى وسبعين ومائة في شوال، فكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وأياماً، صفا له الأمر من جملتها سنتين وشهراً، وكانت الفتنة بينه وبين أخيه سنتين، وكان طويلاً جسيماً حسن الوجه، بعيد ما بين المنكبين، أشقر سبطاً، صغير العينين، به أثر جدري، نقش خاتمه: «محمد واثق بالله»[1].

وقال «أبو جعفر الطبري» في تاريخه: كتب «حَمَّوَيْه» مولى «المهدي»

---

(١) العقد الفريد (١١٨/٥).

صاحب البريد بطوس إلى «أبي مسلم سلام» مولاه وخليفته ببغداد على البريد والأخبار، يعلمه وفاة «الرشيد»، فدخل على «محمد» فعزَّاه وهنَّأه بالخلافة، وكان أول الناس فعل ذلك، قدم عليه «رجاء» الخادم، يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة، كان «صالح بن الرشيد» أرسله إليه بالخبر بذلك ـ وقيل: أتاه الخبر بذلك ـ ليلة الخميس للنصف من جمادى الآخرة، فأظهره يوم الجمعة، وستر خبره بقية يومه وليلته، وخاض الناس في أمره.

ولما قدم كتاب «صالح» على «محمد الأمين» مع «رجاء» الخادم، بوفاة «الرشيد» ـ وكان نازلاً في قصره بالخُلْد ـ تحول إلى قصر «أبي جعفر» بالمدينة.

وأمر الناس بالحضور ليوم الجمعة، فحضروا وصلى بهم، فلما قضى صلاته صَعِدَ المنبر، فحَمِدَ الله وأثنى عليه، ونعى «الرشيد» إلى الناس، وعزَّى نفسه والناس، ووعدهم خيراً، وبسط الآمال، وآمن الأسود والأبيض، وبايعه جلة أهل بيته وخاصته ومواليه وقواده، ثم دخل، ووكَّل ببيعته على من بقي منهم عم أبيه «سليمان بن أبي جعفر»، فبايعهم، وأمر «السندي» بمبايعة جميع الناس من القواد وسائر الجند، وأمر للجند ممن بمدينة السلام برزق أربعة وعشرين شهراً، وبخواص مَنْ كانت له خاصة بهذه الشهور[1].

وجاء في «تاريخ الخلفاء» «للسيوطي»: «محمد أبو عبد الله بن الرشيد» كان ولي عهد أبيه، فولى الخلافة بعده، وكان من أحسن الشباب صورة، أبيض، طويلاً، جميلاً، ذا قوة مفرطة، وبطش وشجاعة معروفة، يقال: إنه قتل مرة أسداً بيده، وله فصاحة وبلاغة، وأدب وفضيلة، لكن كان سيىء التدبير، كثير التبذير، ضعيف الرأي، أرعن، لا يصلح للإمارة، فأول ما بويع بالخلافة، أمر ثاني يوم ببناء ميدان جوار قصر «المنصور» للعب بالكرة، ثم في سنة أربع وتسعين ومائة، عزل أخاه «القاسم» عما كان «الرشيد» ولاه، ووقعت الوحشة بينه وبين أخيه «المأمون»، وقيل: إن «الفضل بن الربيع» علم أن الخلافة إذا أفضت إلى «المأمون» لم يُبْقِ عليه، فأغرى «الأمين» به، وحثه على خلعه، وأن يولي العهد لابنه «موسى».

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٣٦٥).

ولما بلغ «المأمون» عزل أخيه «القاسم» قطع البريد عن «الأمين»، وأسقط اسمه من الطرز والضرب، ثم إن «الأمين» أرسل إليه يطلب منه أن يقدم «موسى» على نفسه، ويذكر أنه قد سمَّاه «الناطق بالحق»، فرد «المأمون» ذلك وأباه، وخامر الرسول معه، وبايعه بالخلافة سراً، ثم كان يكتب إليه بالأخبار، ويناصحه من العراق.

ولما رجع وأخبر «الأمين» بامتناع «المأمون» أسقط اسمه من ولاية العهد، وطلب الكتاب الذي كتبه «الرشيد» وجعله بالكعبة، فأحضره ومَزَّقه، وقويت الوحشة، ونصح «الأمينَ» أولو الرأي.

وقال له «خزيمة بن خازم»: يا أمير المؤمنين! لن ينصحك مَنْ كَذَبك، ولن يغشك مَنْ صَدَقَك، لا تجرِّىء القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا بيعتك وعهدك، فإن الغادر مغلول، والناكث مخذول، فلم ينتصح، وأخذ يستميل القواد بالعطاء، وبايع بولاية العهد لابنه «موسى» ولقَّبه «الناطق بالحق»، وهو إذ ذاك طفل رضيع، فقال بعض الشعراء في ذلك:

أضاع الخلافة غش الوزير ... وفسق الأمير وجهل المشير
لواط الخليفة أعجوبة ... وأعجب منه حلاق الوزير
فهذا يدوس وهذا يُدَاس ... كذاك لعمري خلاف الأمور
فلو يستعِفَّان هذا بذاك ... لكان بعرضة أمر ستير
وأعجب من ذا وذا أننا ... نبايع للطفل فينا الصغير
ومن ليس يحسن غسل استه ... ولم يخلُ من بوله حَجْر ظير
وما ذاك إلا بفَضْلٍ وبَكْرٍ ... يريدان طمس الكتاب المنير
وما ذاك لولا انقلاب الزما ... ن في العير هذان أو في النفير

ولمّا تيقَّن «المأمون» خلعه، تسمى بإمام المؤمنين، وكوتب بذلك، وولَّى «الأمين» «علي بن عيسى بن ماهان» بلاد الجبال همدان ونهاوند وقم وأصبهان، في سنة خمس وتسعين ومائة، فخرج «علي بن عيسى» من بغداد، في نصف جمادى الآخرة، ومعه الجيش لقتال «المأمون» في أربعين ألفاً في هيئة لم يُرَ مثلها، وأخذ معه قيد فضة ليقيد به «المأمون» بزعمه، فأرسل «المأمون» لقتاله «طاهر بن الحسين» في أقل من أربعة آلاف، فكانت الغلبة له، وذبح «علي» وهزم

جيشه، وحُمِلَ رأسه إلى «المأمون» فطيف به في خراسان، وسلِّم على «المأمون» بالخلافة، وجاء الخبر «الأمينَ» وهو يتصيد السمك، فقال للذي أخبره: ويلك! دعني فإن «كوثراً» صاد سمكتين، وأنا ما صدت شيئاً بعد.

وقال «عبد الله بن صالح» الجرمي: لما قُتِلَ «علي» أرجف الناس ببغداد إرجافاً شديداً، وندم «الأمين» على خلعه أخاه، وطمع الأمراء فيه، وشغَبوا جندهم لطلب الأرزاق من «الأمين»، واستمر القتال بينه وبين أخيه، وبقي أمر «الأمين» كل يوم في الإدبار لانهماكه في اللعب والجهل، وأمرُ «المأمون» في ازدياد إلى أن بايعه أهل الحرمين وأكثر البلاد بالعراق، وفسد الحال على «الأمين» جدًّا، وتلف أمر العسكر، ونفذت خزائنه، وساءت أحوال الناس بسبب ذلك، وعظم الشر، وكثر الخراب والهدم من القتال، ورمي المجانيق والنفط حتى دَرَسَت محاسن بغداد وعملت فيها المراثي، ومن جملة ما قيل في بغداد:

بكيت دماً على بغداد لَمَّا ... فقدت غضارة العيش الأنيق
أصابتها من الحساد عَينٌ ... فأفنت أهلها بالمنجنيق

ودام حصار بغداد خمسة عشر شهراً، ولحق غالب العباسيين وأركان الدولة بجند «المأمون»، ولم يبق مع «الأمين» يقاتل عنه إلَّا غوغاء بغداد والحرافشة، إلى أن استهلَّت سنة ثمان وتسعين ومائة، فدخل «طاهر بن الحسين» بغداد بالسيف قسراً، فخرج «الأمين» بأمه وأهله من القصر إلى مدينة «المنصور»، وتفرَّق عامة جنده وغلمانه، وقلَّ عليهم القوت والماء.

قال «محمد بن راشد»: أخبرني «إبراهيم بن المهدي» أنه كان مع «الأمين» بمدينة «المنصور»، قال: فطلبني ليلة فأتيت، فقال: ما ترى طيب هذه الليلة، وحسن القمر وضوءه في الماء، فهل لك في الشراب؟ قلت: شأنك، فشربنا، ثم دعا بجارية اسمها «ضعف» فتطيرتُ من اسمها، فأمرها أن تغني، فغنَّت بشعر النابغة الجعدي:

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً ... وأيسَرَ ذنباً منك ضُرِّج بالدم

فتطيَّر بذلك، وقال: غني غير هذا، فغنَّت:

أبكَى فراقُهم عيني فأرَّقها ... إن التفرق للأحباب بَكَّاء

ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عدَّاء
فاليوم أبكيهم جهدي وأندبهم حتى أؤوب وما في مقلتي ماء

فقال لها: لعنك الله، ما تعرفين غير هذا، فقالت: ظننت أنك تحب هذا، ثم غنَّت:

أما ورب الكون والحَرَكِ إن المنايا الكثيرة الشَّرَكِ
ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء في الفلكِ
إلا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانُه إلى ملك
وملك ذي الفرس دائم أبداً ليس بفانٍ ولا بمشتركِ

فقال لها: قومي لعنك الله! فقامت، فعثرت في قدح بلور له قيمته فكسرته، فقال: ويحك يا إبراهيم أما ترى؟ والله! ما أظن أمري إلَّا قد قرب، فقلت: بل يطيل الله عمرك، ويعزُّ ملكك، فسمعت صوتاً من دجلة: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يُوسُف، الآية: ٤١]، فوثب «محمد» مُغْتَمًّا، وقتل بعد ليلتين، أُخِذَ وحُبِس في موضع، ثم أدخل عليه قوم من العجم ليلاً فضربوه بالسيف، ثم ذبحوه من قفاه، وذهبوا برأسه إلى «طاهر» فنصبه على حائط بستان، ونودي: هذا رأس المخلوع «محمد»، وجُرَّت جثته بحبل، ثم بعث «طاهر» بالرأس والبُرُد والقضيب والمصلَّى، وهو من سعف مبطَّن إلى «المأمون» واشتد على «المأمون» قتل أخيه، وكان يحب أن يرسل إليه حياً، ليرى فيه رأيه، فحقد بذلك على «طاهر بن الحسين» وأهمله نسياً منسياً إلى أن مات طريداً بعيداً، وصدق قول «الأمين»، فإنه كان يكتب بخطه رقعة إلى «طاهر بن الحسين» لما انتدب لحربه فيها: يا طاهر! ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا، فكان جزاؤه عندنا إلَّا السيف، فانظر لنفسك أو دَعْ، يُلَوِّح بأبي مسلم وأمثاله الذين بذلوا نفوسهم في النصح لهم، فكان مآلهم القتل منهم، ولإبراهيم بن المهدي في قتل «الأمين»:

عوجا بمغنى طللٍ دائرِ بالخلد ذات الصخر والآجُرِ
والمرمر المسنون يطلى به والباب باب الذهب الناضرِ
وأبلغا عني مقالاً إلى الـ ـمولى عن المأمور والآمرِ
قولا له: يابن ولي الهدى طهِّرْ بلاد الله من طاهرِ
لم يكفه أن حَزَّ أوداجه ذَبْحَ الهدايا بمُدَى الجازرِ

حتى أتى يسحب أوصاله ... في شطن هذا مدى السائرِ
قد برد الموت على جفنه ... فطرفه منكسر الناظرِ

ومما قيل فيه:

لِمَ نبكيك؟ لماذا؟ للطربْ ... يا أبا موسى وترويج اللعبْ
ولترك الخمس في أوقاتها ... حَرَصاً منك على ماء العِنَبْ
وشنيف أنا لا أبكي له ... وعلى كوثر لا أخشى العَطَبْ
لم تكن تصلح للملك ولم ... تعطك الطاعة بالملك العربْ
لِمَ نبكيك؟ لما عَرَّضْتَنَا ... للمجانيق وطوراً للسَّلَب

ولخزيمة بن الحسن على لسان «زبيدة» قصيدة يقول فيها:

أتى طاهر لا طهَّرَ الله طاهراً ... فما طاهر فيما أتى بمطهَّرِ
فأخرجني مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالي وأخرب أدؤري
يعزُّ على هارون ما قد لقيتُه ... وما مرَّ بي من ناقص الخلق أعورِ
تذكر أمير المؤمنين قرابتي ... فديتك من ذي حرمةٍ متذكرِ

قال ابن جرير: لما ملك «الأمين»، ابتاع الخصيان، وغالى بهم، وصَيَّرهم لخلوته، ورفض النساء والجواري.

وقال غيره: لما مَلك وجَّه إلى البلدان في طلب الملهين، وأجرى لهم الأرزاق، واقتنى الوحوش والسباع والطيور، واحتجب عن أهل بيته وأمرائه، واستخف بهم، ومحق ما في بيوت الأموال، وضيَّع الجواهر والنفائس، وبنى عدة قصور للهو في أماكن، وأجاز مرة مَنْ غَنَّى له:

هجرتك حتى قلت لا يعرف القلى ... وزرتك حتى قلت ليس له صبر

بمِلْءِ زَوْرَقه ذهباً، وعمل خمس حَرَّاقات ـ جمع حَراقة، ضرب من السفن ـ فيها مرامي نيران يرمي بها العدو ـ على خلقة الأسد، والفيل، والعُقَاب، والحية، والفرس، وأنفق في عملها أموالاً، فقال «أبو نواس»:

سخر الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحرابِ
فإذا ما ركابهِ سِرْنَ بَرًّا ... سار في الماء راكباً ليث غابِ
أسداً باسطاً ذراعيه يهوي ... أهْرَتَ الشِّدْق كالح الأنيابِ

قال الصولي: حدثنا أبو العيناء، حدثنا محمد بن عمرو الرومي، قال: خرج «كوثر» خادم «الأمين» ليرى الحرب، فأصابته رجمة في وجهه، فجعل «الأمين» يمسح الدم عن وجه، ثم قال:

ضربوا قرة عيني ومِن أجلي ضربوه
أخذ الله لقلبي مِنْ أناس أحرقوه

ولم يقدر على زيادة، فأحضر «عبد الله بن التيمي» الشاعر، فقال له: قل عليهما، فقال:

ما لِمَنْ أهوى شبيهُ فبه الدنيا تتيهُ
وصله حلوٌ ولكن هجره مُرٌّ كريهُ
مَنْ رأى الناس له الفَضْـ ـلُ عليهم حَسَدُوهُ
مثل ما قد حسد القا ئمَ بالملك أخوهُ

فأوقر له ثلاثة بغال دراهم، فلما قتل «الأمين» جاء «التيمي» إلى «المأمون» وامتدحه، فلم يأذن له، فالتجأ إلى «الفضل بن سهل» فأوصله إلى «المأمون»، فلما سلَّم عليه، قال: هيه، يا تيمي!

مثل ما قد حسد القا ئم بالملك أخوهُ

فقال «التيمي»:

نُصِرَ المأمون عبد الـ ـلَهِ لما ظلموهُ
نقض العهد الذي قد كان قِدْماً أكَّدوهُ
لم يعامله أخوهُ بالذي أوصى أبوهُ

فعفا عنه، وأمر له بعشرة آلاف درهم[1].

وقال «السيوطي»:

ومن شعر «الأمين» يخاطب أخاه «المأمون» ويعيره بأمه لما بلغه عنه أنه يعدِّد مثالبه، ويفضل نفسه عليه، أنشده «الصولي»:

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٦١ ـ ٢٦٦.

لا تفخرن عليك بعد بقية ... والفخر يكمل للفتى المتكاملِ
وإذا تطاولت الرجال بفضلها ... فاربع فإنك لست بالمتطاولِ
أعطاك ربك ما هويتَ وإنما ... تلقى خلاف هواك عند راجلِ
تعلو المنابر كل يوم آملاً ... ما لستَ مِنْ بعدي إليه بواصلِ
فتعيب من يعلو عليك بفضله ... وتعيد في حقي مقال الباطلِ

قلتُ: ـ يعني السيوطي ـ: هذا نظم عالٍ، فإن كان له فهو أحسن من نظم أخيه وأبيه[1]. وروى «ابن عبد ربه» في «العقد الفريد»: عن العتبي: قال «أبُو الجنوب؛ مروان بن أبي حفصة» أبياتاً ورفعها إلى «زبيدة بنت جعفر» يمتدح ابنها «محمدا»، وفيها يقول:

لله دَرُّكِ يا عقيلة جعفر ... ماذا ولدتِ من العُلى والسُّؤدَدِ
إن الخلافة قد تبيَّن نورها ... للناظرين على جبين محمَّدِ

فأمرت أن يملأ فمه دُرًّا[2].

وقال الأندلسي أيضاً في «العقد»: لما قَتَلَ «عبدُ الله المأمون» أخاه «محمد بن زبيدة» أرسلت أمه «زبيدة بنت جعفر» إلى «أبي العتاهية» أن يقول أبياتاً على لسانها للمأمون، فقال:

ألا إن ريب الدهر يدني ويبعدُ ... وللدهر أيام تذمُّ وتُحْمَدُ
أقول لريب الدهر إن ذهبت يدٌ ... فقد بقيت والحمد لله لي يَدُ
إذا بقي المأمون لي فالرشيد لي ... ولي جعفر لم يهلكا ومحمدُ

وكتبت إليه من قوله:

لخير إمام قام من خير معشر ... وأكرم بسَّام على عود منبرِ
كتبتُ وعيني تستهل دموعها ... إليك ابن يعلى من دموعي ومحجري
فجعنا بأدنى الناس منك قرابةً ... ومن زلَّ عن كبدي فقَلَّ تصبُّري
أتى طاهر وطَهَّرَ الله طاهراً ... وما طاهر في فعله بمطهَّرِ
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالي وخَرَّب أذؤري

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٦٧.
(٢) العقد الفريد (١/ ٣١٣ ـ ٣١٤).

وعـزَّ عـلـى هـارون مـا قـد لـقـيـتـه وما نـابـنـي مـن نـاقـص الـخـلـق أعـورِ

فلما نظر المأمون إلى كتابها وجَّه إليها بحِباء جزيل، وكتب إليها يسألها القدوم عليه، فلما تأته في ذلك الوقت، وقبلت منه ما وجَّه به إليها، فلما صارت إليه بعد ذلك، قال لها: من قائل الأبيات؟ قالت: «أبو العتاهية»، قال: وبكم أمرتِ له؟ فقالت: بعشرين ألف درهم، قال «المأمون»: وقد أمرنا له بمثل ذلك، واعتذر إليها من قتل أخيه «محمد»، وقال لها: لستُ صاحبهُ ولا قاتلَه، فقالت: يا أمير المؤمنين! إن لكما يوماً تجتمعان فيه، وأرجو أن يغفر الله لكما إن شاء الله[١].

وقال ابن عبد ربه: قالت «أم جعفر؛ زبيدة بنت جعفر» للمأمون، حين دخلت عليه بعد قتل ابنها: الحمد لله الذي ادَّخركَ لي لمَّا أثكلني ولدي، ما ثكلت ولداً كنتَ لي عوضاً منه.

فلما خرجت قال «المأمون» لأحمد بن أبي خالد: ما ظننتُ أن نساء جُبِلْنَ على مثل هذا الصبر[٢].

قال أحمد بن حنبل: إني لأرجو أن يرحم الله «الأمين» بإنكاره على «إسماعيل بن علية»، فإنه أدخل عليه فقال له: يابن الفاعلة! أنت الذي تقول: كلام الله مخلوق؟[٣].

أما عن أولاد «الأمين» فقد ذكر «ابن عبد ربه» في «عقده» فقال: رزق من الولد «موسى» من أم ولد تدعى «نَظْم» ولقَّبه «الناطق بالحق» وضرب اسمه على الدراهم.

وذكر «الصولي» قال: حدثني من قرأ على درهم:

كـل عِـزٍّ مَـفـخَـرِ فـلِـمُـوسـى الـمـظـفَّـرِ
مـلـك خُـطَّ ذكـره فـي الـكـتـاب الـمُـسَـطَّـرِ

(١) العقد الفريد (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).
(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤).
(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ٣٦٦.

وماتت «نَظْم» فاشتد جزعه عليها، فدخلت «زبيدة» مغرية له، فقالت:

نفسي فداؤك لا يذهب بك التلف ... ففي بقائك ممن قد مضى خلف
عوضتَ موسى فماتت كل مَرْزِيةٍ ... ما بعد موسى على مَفْقُودةٍ أسفُ

وبايع لابنه «موسى» في حياته، ولأخيه «عبد الله»، وأمه أم ولد، ونقش اسمه على الدراهم[1].

(١) العقد الفريد (٥/ ١١٨ ـ ١١٩).